

الخطبة السبعون

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: 6 / 66]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غَلاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللّٰهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ [التحریم: 6 / 66]

خطاب للمؤمنين، وتحذير للمؤمنين من الله ذي الجلال والإكرام. هذا الخطاب وهذا التحذير، تحذير خوف ووقاية لهم، تحذير تبصير بالآخرة وما فيها. تخويف حتى لا يستهينوا، وتبصرة بعواقب الأمور. وهو أمر رباني باتخاذ الأسباب التي تقي من النار، وتخوف منها؛ لأن وقودها الناس والحجارة، نحن في الدنيا نارنا نوقدها بالخشب فانظر إلى حرارتها، فما بالك إذا كان وقودها الحجارة كيف تكون؟ وفوق هذا وذاك عليها ملائكة، وحتى لا يتطرق إلى ذهنك صورة الملائكة اللطيفة الطيبة، فقد وصفها بقوله سبحانه: غلاظ شداد، حتى لا تطمع في الرأفة والرحمة، هؤلاء الملائكة طائعين منفذين لأوامر الله سبحانه وتعالى، أعد قراءة الآية الكريمة وتدبرها مرات ومرات عملاً بقوله تعالى: ﴿كُنْتُ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: 29 / 38]، تدبر يا عبد الله، اتعظ يا عبد الله، نفذ أوامر الله تعالى بقوله: ﴿فَوْاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: 6 / 66] وكما قال السلف من الصحابة رضوان الله عليهم: أدبهم (أي: الأولاد)، علموهم على طاعة الله تعالى، انهوهم عن الفحشاء والمنكر، علموهم أمور دينهم، عقيدتهم، علموهم الحلال والحرام، أدبهم بأخلاق النبوة، علموهم محاسن الأخلاق، والكرم، والصدق، وإغاثة الملهوف.

كم من مضيع للصلاة من أولادنا، كم من أولادنا لا يصلي السنن ولا يصوم النوافل، كم من أولادنا يضيع أوقاته في هذه الهواتف والمواقع التي لا خير فيها. كم من أولادنا من يركض إلى المساجد وإلى الصلاة، كم منا كما قال عليه الصلاة والسلام: «قلبه معلق بالمساجد ما إن خرج منه حتى يعود إليه» مسلم، كم منا ومن أولادنا مثل النبي ﷺ في قوله: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» النسائي، انظر إلى هذا التعبير الذي ينم عن حب وسعادة ولذة لا يعلوها لذة ولا سعادة. وجعلت قرّة عيني في الصلاة. يا الله ما أروعها وما أحلاها من كلمة، هل نحن كذلك؟ هل نحن كما أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132 / 20]، وهل نحن مثل إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مریم: 55 / 19]، هل ربينا أولادنا على حب المساجد وحب الصلاة، فرافقتناهم إلى المسجد وعلمناهم آداب المسجد، وآداب المرحاض، وآداب التصرف في المسجد؛ فلا صراخ ولا رفع صوت ولا ضجيج. وهل أديناهم كما ينبغي؟ وكافأناهم على حسن تصرفهم وانضباطهم؟ قال عليه الصلاة والسلام: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين» أبو داود (495).

وكما أن الآية تخيف من النار وتصفها كما في كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْعَىٰ وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: 27-28 / 74]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: 30 / 50]، وكما قال عليه الصلاة والسلام من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» مسلم (5080).

لكن يجب علينا كما نخوف أولادنا من النار، ومن عذاب القبر، ومن عذاب المحشر، ونخوفهم من الحساب، كما قال عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فما يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة» متفق عليه.

وقيل: إن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها ثم قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» البخاري ومسلم، وقال بعض أهل العلم: إنه لما ذكر النار وأشاح بوجهه عليه الصلاة والسلام، أي كأنما أريها فأشاح بوجهه، وأمرنا بأن نتقيها لما رأى من عظمتها وحرارتها وشدتها وفظاعتها أجارنا الله تعالى منها.

أعود فأقول: بأننا نخيف أولادنا وأنفسنا من كل هذا، ولكن يجب أن لا ننسى عفو الله وكرمه، مع الخوف يجب أن يأتي الرجاء، ومع ذكر النار يجب أن يأتي ذكر الجنة، ومع العقوبة والعذاب، يجب أن نذكر ونعلم الرأفة والرحمة والعفو الإلهي، وهكذا أمرنا ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ نَحْنُ عِبَادِي آتَىٰ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: 15 / 49-50]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ [الزمر: 39 / 53-54].

أولاً - أعود إلى قوله تعالى: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: 66 / 6]، والسؤال الآن كيف؟ كيف يا رب أقي نفسي وأهلي النار؟ اتفق أهل العلم أجمعون على أن العقيدة هي الركن الأساسي الموجب للوقاية من النار، أو من التأييد في النار، أي: إن صاحب العقيدة الصحيحة لا يخلد في نار جهنم، قد يُعذب على معاصيه وفحشه، ولكن لا يخلد في النار، إذاً أهم قضية هي قضية التوحيد، لذلك قال عليه الصلاة والسلام من حديث أنس رضي الله عنه: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير» البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال ﷺ: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه أو نفسه» البخاري.

فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه» صحيح الجامع. وأهم شيء في نظري بعد العقيدة الصحيحة هو الإخلاص في العمل لله تعالى، الإخلاص في الأقوال والأعمال والنيات، يجب أن تكون لله وحده على منهج النبوة. وفي صحيح الترغيب والترهيب وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قيل: يا رسول الله ﷺ أي الناس أفضل؟ قال ﷺ: «كل مخموم القلب صدوق اللسان. قيل: فما مخموم القلب؟ قال ﷺ: هو التقى النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد». وقال عليه الصلاة والسلام: «فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» البخاري. فيا عبد الله تعلم التوحيد، وعلمه أولادك وأهلك، وكما قيل: «ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد» والتوحيد له أركان وله شروط وله الفضل الأول في الطريق إلى الجنة، وبدونه لا تنفع عبادة ولا ينفع عمل، فهذا أول ما تقوم به، وهذا الذي أمر الله سبحانه وتعالى به بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 47 / 19].

ثانياً - حافظ على العبادات بأركانها وشروطها وسننها، علمها أولادك وطمعهم بها، وكافئهم عليها، وحببهم بها بأي طريقة استطعت، لأنك المسؤول الأول عنهم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخدام راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» البخاري ومسلم، فالراعي الذي يرعى ويصون ويحمي ويحفظ، ويراقب من في حمايته ورعايته وتحت يده، سواء كان زوجة أو أولاد أو أقارب أو عمال أو أي شيء فهو مسؤول عنهم، وعن توجيههم ورعايتهم وحمايتهم ونجاتهم وفوزهم يوم القيامة، فهذه هي أهم القضايا التي يجب الاهتمام بها. ما فائدة أن أولادك كانوا أطباء ومهندسين وأصحاب ملايين وهم في الآخرة حطب جهنم والعياذ بالله؟ ماذا أنجزت إذا قضيت عمرك وأفنيته في تعليم أولادك والإنفاق عليهم، ثم بعد موتك كانوا دعاة للشيطان، ومن أعوان الشيطان، ومن عبيد الدنيا؟

لو جرحت يدك لتألمت، ولو قطعت يدك لبكيت وتألمت، لأن ارتباطك بيدك ارتباط عضوي، وكذلك ابنك هو فلذة كبذك، وهو قطعة منك، أكبر ألم للأب أن يرى الابن حطب جهنم، أكبر خسارة يجنيها الأب إذا خسر أولاده للدينا وللشيطان، ألم لا يعرفه إلا من جربه، وسعادة لا يوازيها سعادة عندما ترى ابنك من الهداة المهديين، تراه من الصالحين، ترى وجهه يشع نوراً وإيماناً، سعادة ما بعدها سعادة. ما فائدة التعليم العالي إذا لم يصحبه إيمان وتقوى؟ ما فائدة اللباس الغالي إذا لم يصحبه حب للمساكين وشكر لله تعالى؟ ما فائدة الطعام الفاخر والغذاء اللذيذ إذا لم يصحبه شكر لله، شكر للمُنعم رافة بالفقراء والمحتاجين؟ إذا لم يصحبه إيثار؟ إذا لم يصحبه مشاركة؟

قال عليه الصلاة والسلام: «إن من أمتي قومًا يعطون مثل أجور أولهم، ينكرون المنكر» صحيح الجامع، حم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله وملائكته يُصلُّون على الذين يصلُّون الصفوف الأول، وما من خطوة أحب إلى الله من خطوة يمشيها العبد يصل بها صفاً» صحيح الترغيب، وعن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ: قلت: أخبرني بأحب الأعمال إلى الله؟ فقال ﷺ: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة وحط عنك بها خطيئة» مسلم، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أفضل العمل: إدخال السرور على المؤمن؛ تقضي عنه ديناً، تقضي له حاجة، تنفس له كربة» صحيح الجامع، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال ﷺ: الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم ماذا؟ قال ﷺ: أن يسلم الناس من لسانك» صحيح الترغيب، والترهيب، وعن أبي موسى رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ﷺ أي الإسلام أفضل؟ قال ﷺ: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» البخاري ومسلم.

ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، ففضى يومه الأول في دفن سليمان، وفي استقبال الناس والوفود لاستلام الخلافة، وهكذا طول

الليل وبعد صلاة الفجر، فانتهى إلى بيته ضحى، وأراد أن يستريح من التعب والجهد، فجاءه ابنه عبد الملك وقال: ما تريد أن تصنع يا أبت؟ فقال عمر: أريد أن أقيّل (أي: آخذ قيلولة وهو النوم اليسير)، فقد تعبت البارحة في أمر عمك سليمان، فقال ابنه عبد الملك: أتقيّل ولا ترد المظالم إلى أهلها؟ قال: يا بني إذا صليت الظهر رددت المظالم. فقال: يا أبت من يضمن لك أن تعيش إلى الظهر؟ فقال عمر: أدن مني، فدنى عبد الملك منه؛ فقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من ظهري من يعينني على ديني، وقام عمر وجلس لرد المظالم» من كتاب سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي (2 / 150). قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه، حتى يُسأل الرجل عن أهل بيته» صحيح الترغيب والترهيب (1966).

ثالثاً - لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد من هذا، لأنه لولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاعتاد الناس المنكر، وخرج جيل يظن أن المنكر صار معروفاً، لذلك لا بد من هذا حتى يُعرف المنكر، ويُعرف أنه منكر، ولو شاع يبقى منكر، ولا بد من النصيحة، ولا بد من الأمر بالمعروف بغض النظر أطاع الناس أم رفضوا، أنا مُطالب بالنصيحة (أي: بالنصح إلى الناس)، أنا مُطالب بتبيان شرع الله، أنا مُطالب بتعريف الناس بأمور دينهم، قبلوا ذلك أم رفضوا، نساؤنا، بناتنا، أخواتنا، يجب أن نقول لهم: ما هو الحلال وما هو الحرام. البنطلونات الضيقة، عدم لبس الجلباب، حرام حرام حرام، ولو فعله الملايين، الزينة وأحمر الشفاه والأقدام العارية حرام حرام حرام، ولو صارت شائعة، التسكع والتلطف والخلطة والتكسر في الكلام والرسائل الصوتية أو الكتابية بين الشباب والشابات، حرام حرام حرام. ذكّر دائماً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 66 / 6]، فهذه وظيفة الأنبياء حيث قال عليه الصلاة والسلام: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يَعلمه لهم، وينذرهم شر ما يَعلمه لهم» مسلم (3431).

رابعاً - لا بد من الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، لا بد من ذلك، لأننا نخطئ وهذا دأبنا وطبيعتنا، نحن نسعى ونسرف على أنفسنا، لذلك لا بد من التوبة، لا بد من الاستغفار، وهذه نعمة من الله تعالى أن يعلمنا التوبة والاستغفار وأن يقبلها منا، فله الحمد والمنة... فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفِرَ له ولو كان قد فرَّ من الزحف» صحيح د - الترمذي - الحاكم.

خامساً - التواضع والتذلل، والانكسار إلى الله سبحانه وتعالى، والإنابة إليه والاجتهاد في مرضاته بتطبيق شريعته، وامثال أوامره، واتباع سنة نبيه عليه الصلاة والسلام الصحيحة والثابتة، والدفاع عنها، واتباع فهم الصحابة الكرام ونهجهم فهم حملة كتاب الله، وحملة سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهم حملة التفسير والفهم بما جاء في الكتاب والسنة... قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: 4 / 115].

سادساً - أعود فألخص الموضوع: ﴿فَوَأَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: 66 / 6].

1. العقيدة الصحيحة.
2. الحفاظ على العبادات.
3. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
4. التوبة والاستغفار والإنابة إليه تعالى.
5. التواضع والتذلل والانكسار إليه.
6. الالتزام بالقرآن والسنة ومنهج الصحابة.
7. القدوة الحسنة.
8. قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وقال ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ ذلك أم ضيَّع حتى يُسأل الرجل عن أهل بيته» صحيح الترغيب والترهيب (1966)،

9. عن عقبه بن عامر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ﷺ ما النجاة؟ قال ﷺ: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» الترمذي - حديث حسن.

10. البحث عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، قال ﷺ: «قال تعالى: وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه» البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «الصلاة على وقتها» متفق عليه،

11. قراءة القرآن وذكر الله سبحانه وتعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ قال ﷺ: إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده» مسلم، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أتدرون ما أحب الأعمال إلى الله؟ قال ﷺ: أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله» حم، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 2 / 112]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله» البخاري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

